الجامعة والتربية على المواطنيّة
"جامعية" المقاربة المسيحيّة للتربية السياسيّة

جورج ن. نحّاس
جامعة البلمند

الملخّص

في عالم يزداد فيه استعمال الدين كمقوّمة من مقوّمات العمل السياسي، يرد نعت "المسيحي أو المسيحيّة" على عديد من مكوّنات الحياة السياسيّة. تهدف هذه المداخلة إلى وضع أطر تتناسب والمقاربة المسيحيّة للشأن العام ويمكن أن تبنى عليها تنشئة تربوية جامعيّة ملائمة للتربية على السياسة.

المدخل

يتكلّم الحديث العام على المسيحيّة والسياسة لافتًا إلى التوتر (إلى حد التناقض) بين ملكوت قيصر وملكوت الله. من ناحية أخرى يحلو أيضًا الكلام على التربية وكأنها مجموعة أساليب تعليميّة أو تعلّميّة تصلح في أي زمان ولأي مكان ولكل المواد. فهل هذان الموقفان صحيحان، أم أنهما مبنيان على مقاربات محدودة الرؤية؟

هذه الإشكاليّة المزدوجة بحاجة إلى تمحيص وذلك على ضوء وضوح في الرؤية حول ماهيّة كل من المسيحيّة والسياسة والتربية. فالأولى ترى نفسها ملهمة للمجتمع وللجماعة المؤمنة، وللإنسان المؤمن، ولا تعتبر أن من وظيفتها أن تحل محل العاملين في الشأن العام، ولا أن تجعل من عقائدها نظامًا فلسفيًا يستعمل في الأداء السياسي. أما السياسة فهي تحديدًا أداة حسن التدبير في

العالم، وهي مسؤولة عن تسيير المجتمع في اتجاه نموه ونماء أفراده، وتناغم مكوناته. أخيرًا، التربية هي مجموعة أساليب ووسائل توظف في إنماء الإنسان والمجتمع فيكمّل أحدهما الآخر. من هنا كانت الضرورة لتجنب سوء استعمال التعابير والمفاهيم فلا تتحول المسيحيّة إلى إيديولوجيا، ولا السياسة إلى وسيلة قمع، ولا التربية إلى أداة ترويض. وهذا كله يتطلب مرجعيّة تصلح كأرضيّة نقاش وتفاعل بين شركاء العيش الواحد.

تقوم فرضية هذه المداخلة على ما يلي: يمكن لفهم صحيح للمسيحيّة أن يؤدّي إلى اعتماد تنشئة على السياسة تكون عنصر جمع في الوطن الواحد وعنصر تضامن على الصعيد الدولي.

مقومات المقاربة المسيحيّة وانعكاسها على الفكر السياسي والأداء التربوي

تقوم مقاربة المسيحيّة للشأن العام على بعض المقومات الأساس والتي هي بمثابة معايير لفحص المبادئ والتوجهات التي تتحكم بمسيرة الإنسان والمجموعات.

أولى هذه المقومات هي الحرية. فمن دون الحرية لا يستقيم الفكر المسيحي لأن الشخص مخلوق على صورة الله ومثاله، وأعطي حق الانتقاء منذ اللحظة الأولى في رواية الخلق، وهو مدعو للتواصل مع الآخر إذ أنه لم يُخْلق وحيدًا. أما الجماعة فهي مكان التواصل والنمو المجتمعي، إذ لم يعرف المجتمع الإنساني التفرقة إلا عندما بطل التواصل وفق رواية برج بابل. والحرية هي ضمانة التواصل لأن بدونها يتحوّل الحوار إلى تراشق كلمات بعيدًا عن خبرة الحياة.

المقومة الثانية هي في اعتبار التنوع مصدر غنى وليس مصدر تقاتل. خصوصيّة الفرد هبة الله وعلامة محبة الله له، لذلك فالتنوع يستدعي التكامل ولا يستغني عنه. فكلام بولس الرسول على تعدد المواهب وتكامل هذه

المواهب في الخدمة هو أساسي في رؤية المسيحيّة للإنسان وللجماعات، فلا إلغائيّة ولا تكابر من فرد على آخر. كل تنوع هو في سبيل الخدمة وكل الخدم تحظى بنفس القدر من الاحترام كما يقول بولس الرسول.

أما المقوّمة الثالثة فهي مبدأ الشراكة التي عرفناها منذ الخلق. فالله أراد أن يكون لآدم شريكة، والله لم يرض على التقاتل الذي أدى إلى قتل هابيل في الرواية الكتابيّة. فالشراكة هي السبيل لتوظيف التنوع من أجل إظهار مقاصد الله بالنسبة للإنسانيّة. هذه الشراكة الحرّة والمسؤولة في آن تظهر جمال مقاصد الله في تعدد المواهب.

ماذا يعني هذا الكلام على الصعيد السياسي؟

في المسيحيّة لا ينفصل العمل السياسي عن حياة الإنسان، لأن الإنسان كل لا يتجزّأ. رغم الحرّية المعطاة للإنسان، من المتوقع أن يحترم الإنسان محبة الله للكون والتي تجلّت منذ الخلق. لذلك، فللعمل السياسي الجماعي هدف خدمة مرتبط بمسؤولية الإنسان عن العالم. من ضمن هذه المسؤولية يقوم احترام التنوع بين الأفراد في الوطن الواحد وبين الأوطان في العالم، وتكون الزامية الحفاظ على التواصل كعنوان للمحبة بين المواطنين وبين الجماعات السياسيّة.

من ناحية أخرى، لا يمكن أن يختبئ الإنسان وراء كلمة المسيح المشهورة "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" فينسى مسؤوليته عن العالم. فلالتزام شؤون العالم وجه "إيجابي": القصد منه العمل حتى تتجلى مملكة قيصر، وتصل إلى ملء قامة مملكة الله، قائمة على الحرية المسؤولة والقبول بالتنوع، والتزام الشراكة وسيلة للقاء الآخر. لذلك المطلوب هو عدم الترفع عن الخدمة بل تثمير المواهب الشخصيّة في خدمة العالم ومحبته. فالمسيحي ليس

بهارب، بل يتحمّل المسؤولية الشخصيّة بالتناغم مع عمل المجموعات في الوطن لأن خدمة الله تكون بخدمة القريب.

كثيرًا ما يرتاح المسيحيون لوضع منطق الخدمة هذا في خانة "العمل الإجتماعي". هذه رؤية منقوصة عن مقاصد الله للكون. فالرسول يوحنا تكلّم في الرؤيا عن المسيح الكوني، وقال الجالس على العرش: "ها أنذا اصنع كل شيء جديدًا". فالمسؤوليّة السياسيّة كاملة لا تتجزأ، والآخر ليس فقط الفقير بل هو أي فرد أو مجموعة ضمن الوطن الواحد، وأي وطن آخر ضمن المنظومة العالميّة. تجاهها كلها، لا يمكن للمسيحي أن يكون غير مبال، بل عليه أن يساهم في صنع هذا الجديد ويرتكز في ذلك على ثلاثة أركان في عملانية تصرفه المحب والخادم: فهو يرفض العنف كما أمره الرب في إنجيله، وهو لا يدافع عن خطأ لأن المحبة تقبل كل شيء، ويبني على الرجاء لأننا نحن في هذه الدنيا نزرع والله ينمي الحصاد. أخيرًا وليس آخرًا، ولأن الرب أوصى بأن تكون لنا حكمة الحيات مع تواضع الخرفان، فالمسيحي ينكب مع الآخرين على دراسة الواقع السياسي ويخطط وإياهم للسمتقبل المشترك. فالتفرّد ليس من شيَم المحبة، والحق حصيلة جهود طويلة وخبرات متراكمة، ولا يمكن لأحد أن يدعي امتلاك هذه الحقيقة كاملة وبالفطرة.

إذا كان هذا هو الانعكاس على صعيد السياسة، فماذا على صعيد التربية؟

تنبع أهميّة السؤال من واقع الغربة بين الفكر التربوي والرؤية المسيحيّة للإنسان ولدوره في المجتمع كما لو أنهما عالمان منفصلان. فكثيرًا ما تعتمد التربية على مسلمات تستبعد الفكر المسيحي من مخزونها بحجة "فصل الدين عن الدولة". لكن فصل الدين عن الدولة لا يعني أن تستقيل المسيحيّة من دورها كضمير للعالم، وكمذكّر بمقاصد الله حول الإنسان والكون، كما أنه لا

يعني أن تعتبر الدولة كل مرجعيّة دينيّة انتقاصًا لسيادتها. دور التربية من منظور مسيحيّ كبير للتذكير ببعض الأسس التي يتغاضى عنها الفكر السياسي المؤدلج، ذلك من دون تحويل المسيحيّة بدورها إلى إيديولوجية بديلة.

أوّل انعكاس للمقاربة المسيحيّة في مجال التربية السياسيّة هو في وعي نسبية التعاطي مع الكيانات السياسيّة إن من حيث التاريخ أو من حيث الجغرافيا. الألوهيّة هي لله وحده عزّ وجلّ أما الكيانات فهي وسائل أعطيت للإنسان لكي يخدم بواسطتها وفي إطارها، ويجعل محبة الله تتجلى فيها وبواسطتها. الكيانات السياسيّة موجودة ليعي الإنسان كيف يسوس المجموعات لخدمة الأفراد وكيف يتناغم الأفراد في خدمة المجموعة. الكيانات السياسيّة ليست موجودة لتحل محل الله، بل محبة الإنسان لله هي الكفيلة برفع شأن الأوطان مجتمعة.

انطلاقًا من هذه الرؤية تختلف نوعيًا طريقة تربية الفرد من حيث توجهه السياسي في الوطن الواحد وفي تعاطيه مع الآخرين في أوطان أخرى. ينشأ الإنسان على مبدأ إحلال الجماعيّة مكان الفردية، من خلال الحد الطوعي لمفاعيل أفهوم الحريّة عنده، فيتطوّر هذا الأفهوم مع أفهوم المسؤولية عن الآخر والمسؤولية عن جماعة المواطنين. وهذه تربية تبدأ من السن المبكرة، وتبدأ بالعمل والممارسة وليس بالتنظير الفكري ليس إلا.

لكن، ومن ناحية أخرى، وفي خضم الثورة التواصلية التي تسمح بها التقانات المعاصرة، يلعب الإعلام دورًا مميزًا في عملية التربية على السياسة. فالإعلام وسيلة تربويّة تخص الأعمار والفئات كافة. يمكن للمسيحي (أو لجماعة تدّعي المسيحيّة) أن يحسن استعمالها أو أن يغض النظر عن سوء استعمالها وهناك ضرورة للتربية على الإثنين معًا. وهذا الأمر يطال في ما يطال لغة الإعلام التي تتجلى بنوع المفردات المستعملة، وبنوع الصور التي

تعرض، وبنوع الخطاب السياسي الذي يروّج له. فالسؤال الذي على المربين أن يسألوه لأنفسهم هو الآتي: كيف نربي المؤمنين على اكتساب فكر نقدي تجاه ما يسمعون، وما يقرأون، وما يكتبون؟ هل نحن نربي فعلاً على التفتيش عن الحقيقة لنبني على الرجاء، وعلى رفض التحريض محبةٍ بالآخر، وعلى اعتماد العلميّة كأسلوب للتعاطي في الشأن المجتمعي؟ أسئلة مطروحة على ضمير كل المربين.

دور الجامعة في حيّز الواقع

يمكن طبعًا اعتبار كل ما سبق طوباوي المنحى، قائمًا على التمنيات وحسن النيّة، متجاهلاً الواقع السياسي المحيط بنا. لا بد لي من الاعتراف أن هذا الخطر قائم وأن تاريخ المسيحيّة حافل بتناقضات بين خطابها وبين واقع تصرفات المسيحيين، كما أن تاريخ التربية على خلفية مسيحيّة لم يتسم حتى اليوم بمعطيات توضح هوية هذه التربية وخصوصيتها على الصعيد الإنساني.

حتى تكون الفرضية التي أطلقتها في مطلع هذه المداخلة قابلة للتحقيق والتتبع، لا بد من قاعدة عملانيّة لها. وهنا يأتي دور الجامعة. فالجامعة، متى أرادت نفسها جامعة بالفعل (ساعية إلى الحقيقة بتجرد وعلمية) يمكن أن تكون حلقة تغيير مجتمعية، وهذا يتناغم مع الطرح المسيحي لأنه، وكما أوضحت، ليس للمسيحيّة من هدف مجتمعي مؤدلج، بل لها رؤية للإنسان والكون قائمة على تجلّي الجمال والمحبة والخدمة.

ماذا يتطلب الانتقال من حيّز التنظير إلى حيّز الفعل؟ يتطلب ذلك تغييرًا جذريًا على أصعد عديدة أهمها: الخطاب، التأليف، والممارسة. وهي جميعها مدعوة لتختبر، وتتبلور، وتنضج في الجامعة. على سبيل المثال لا الحصر، سأعطي مثلين عن أفهومين عامين: أفهوم الحقوق وأفهوم الديمقراطية. لكن

وقبل أن ألج في التفصيل، أود أن أوضح أننا وفي الإطار التربوي نعني بكلمة "أفهوم" (Concept) المركب الذي يربط ممارسات معينة، في وضعيات محددة، بأساليب التعبير عن مضمون هذه الممارسات من الوجهة المعرفيّة. لذلك فالأفهوم ليس تحديدًا فلسفيًا بل ممارسة في حيّز الواقع يستند إلى مبادئ واضحة ويستعمل بنى واضحة. لذلك سيأتي طرحي للأمثلة بشكل أسئلة عملانيّة وليس بشكل أجوبة.

ما هي الحقوق مثلاً؟ هل هي مجردة في المطلق أم أنها مرتبطة بحيّز المصلحة العامة؟ هل الحقوق مرتبطة بالحرية فقط أم بمسؤولية الفرد عن مجتمعه أيضًا؟ هل الحقوق هي حصرًا ما يصدر في قوانين وأنظمة أم هي مرتبطة بقواعد ودساتير طبيعيّة أخرى؟ هل الدفاع عن الحقوق يذهب إلى حد اعتماد أساليب تتناقض وجوهر هذه الحقوق عند الآخر؟ ما علاقة الحقوق بالقوة، والعنف المادي أو المعنوي؟ ما علاقة الحقوق بالوضع الاجتماعي للفرد ومن يحمي الضعيف من القوي في مجتمع تسلط المال؟ للمقاربة المسيحيّة (كما أوضحت) الطاقة على إعطاء إجابات على كل هذه الأسئلة بشكل علمي ومتماسك. لكن أين تختبر هذه الإجابات التي هي "جامعيّة" المنحى إن لم تجعل الجامعات نفسها المكان المميز لذلك؟

كمٌّ آخر من الأسئلة يواجه أيضًا أفهوم الديمقراطيّة. ما هو هذه الأفهوم؟ ما علاقته بالحق وبرأي الشخص؟ هل الديمقراطيّة أسلوب ضغط فئة على فئة أم أسلوب سلمي للمضي في البحث والنقاش؟ هل الديمقراطية تسعى لمراعاة حقوق وواجبات المجموعات على حساب الأفراد، أم هي مجال رحب لقبول الاختلاف والعمل على إيجاد التناغم في المجتمع؟ هل الديمقراطيّة دكتاتوريّة أو أوتوكراتيّة مغلّفة؟ النظر في وضع الأنظمة السياسيّة في العالم كفيل أن يعطينا صورة عن مدى التكاذب في مجال استعمال مصطلح الديمقراطية على

حساب الأفراد والشعوب معًا وذلك بسبب غياب أرضية مرجعية لفحص الممارسة. وهنا أهمية "جامعيّة" المقاربة المسيحيّة إذ أنها لا تدعي إعطاء الحلول الثابتة والدائمة، بل إعطاء مفاتيح تحليل للأوضاع السياسيّة تراعي الأفراد والمجتمعات معًا. فهل تقبل الجامعات بأن تكون حقل الاختبار؟

وحتى يخرج الكلام على هذا الموضوع إلى حيّز الواقع ويتحوّل إلى معرفة في النطاق الجامعي، وبالمعنى التربوي الحديث للكلمة، يتطلب ذلك من الجامعات:

أ - إيجاد الوضعيات التي يصلح فيها الكلام على هذين الأفهومين للإنطلاق منها نحو وضعيات أخرى قائمة في العالم تثمّر فيها الخبرات المكتسبة في الحياة الجامعيّة. على الجامعة أن تسهر أن تكون هي السبّاقة في خلق المثال لا أن تستورده من الخارج.

ب - إيجاد بنى التعامل الواقعيّة التي على الطالب الجامعي أن يمتلكها والعائدة إلى أفهمويّ الحقوق والديمقراطيّة. والجامعة مسؤولة عن تطوير هذه البنى وإعطائها الخلفيّة العلميّة اللازمة لجعلها عملانيّة وقابلة للتصدير.

ج - بلورة وسائل التواصل التي تليق بالخطاب السياسي كما تراه الجامعة، والمبني على الخلفيات التي سبق وذكرت وللأسباب التي ذكرت.

عندذاك تكون الجامعة، أية جامعة، قد استلهمت روحيّة معيّنة وصاغتها في قوالب معرفيّة صحيحة، لتقدم للمجتمع خدمة على صعيد التربية السياسيّة.

الخاتمة

المؤسف في هذا المجال أن الجامعات لم تعط نفسها بشكل كاف مجال النظر في هذه الأمور نقديًا. طلابها وإداراتها تستنسخ المجتمع السياسي من حيث أساليب التعاطي الداخلي، وتستعمل خطابه الشعبوي أو الضاغط حسب مصلحة هذه المكونة أو تلك من مكونات الجامعة. نحن عمليًا بحاجة إلى جامعة تستلهم المقاربة المسيحيّة (في طروحاتها الإنسانيّة وبغض النظر عن قاعدتها العقائديّة) وذلك من خلال إعادة نظر جذريّة بعمليات أساسيّة ثلاث:

- تأهيل جيل شبابي من خلال الممارسة، واقتناء المعرفة، وامتلاك الفكر النقدي، قادر على التعاطي مع السياسة على أنها أداة خدمة مجتمعية إنسانية عامة مع كل ما تعني كلمة "خدمة" من قوّة دلاليّة في الخلفيّة المسيحيّة.
- تنبيه المجتمع على خطورة التصرفات السياسيّة والبنى التربوية التي تُعْتمد فيه والتي يمكن أن تكون قاتلة للإنسان ولدوره. فالجامعة ورشة نقدية دائمة من شأنها ضمانة النمو المجتمعي على كل صعيد.
- إنتاج وسائل تواصل مجتمعية تتميز بالانفتاح، وبقبول الآخر فلا يكون الإعلام في المجتمع قائمًا فقط على العلاقة التي تنسج بين المال والسلطة على حساب الإنسان. طاقات الجامعات الإنسانيّة قادرة أن تنتج هذا النوع من التوجيه الذي يتسم بالعلمية، والحرية، والانفتاح.

أخيرًا وليس آخرًا، أود أن أقول إنني قاربت هذا الموضوع كمسؤول جامعي مؤمن، وأنا أعي طبعًا خطر هذا الموقف لأنه سيبدو لسامعي أنني منحاز لانتمائي الديني. الحقيقة هي أن في استعمالي النعت "المسيحي" أردت فقط أن أوضح أن لموقفي هذا خلفية إيمانيّة معينة. لكن يمكن أن يشاطرني في

النتائج أي قارئ وأي سامع لأنني لا أسترجع الإيمان المسيحي في وجهه العقائدي، بل أسترجع منه فقط المقاربة المشرقية للإنسان. وأعتبر أن هذه المقاربة "جامعيّة" في جوهرها لأنها: تجمع ولا تفرّق، وتعتمد العلميّة في البحث، وترفض التصنيف الإلغائي. والسياسة إن لم تقم على هذه الأسس ليست إلا لعبة قوّة في ميدان مظلم. والسلام.